الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
-البويرة-
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

جامعة البويرة

كلية اللغات والآداب

قسم اللغة و الأدب العربي

الخطابة الدينية في عصر صدر الإسلام
"خطبة الوداع أنموذجا"

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الليسانس في اللغة والأدب العربي

إعداد الطالبة:
- نور الهدى بتيت

إشراف :
فتيحة حسين

السنة الجامعية: 2012/ 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إن الشكر والحمد لله على توفيقي في إنجاز هذا البحث .

أهدي هذا العمل :

إلى من قدسها ربي وجعل الجنة تحت قدميها

أمي الغالية

إلى من كان مثالا للصبر ورمز العطاء

أبي حفظه الله

إلى سندي في ديني ودنياي "إخوتي الأعزاء"

إلى جميع صديقاتي اللواتي جمعني بهن القدر.

نور الهدى.

❖

كلمة شكر

إن الشكر لله وحده على توفيقي في

انجاز هذا العمل المتواضع، ثم الشكر للأستاذة

المشرفة فتيحة حسين التي أعطتني من وقتها

الثمين و وجهتني بنصائحها طيلة مدة انجاز هذه المذكرة

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني

من قريب أو بعيد.

© Ladie Lynn

فهرس
الموضوعات

الفهرس.....

- الإهداء.

- الشكر.

- فهرس الموضوعات......1- 3

مقدمة......4- 6

الفصل الأول:واقع الخطابة الدينية في صدر الإسلام.....7-14

-تعريف الخطابة..... 8

1-أ- لغة.....8

1 - ب - اصطلاحا.....8

2-البيئة الإسلامية و منزلة الخطابة الدينية فيها.....8-11

2-أ-البيئة الإسلامية.....8-10

2-ب-مكانة الخطابة الدينية..... 10-11

3-مواضيعها و أشهر خطباءها.....11-14

3-أ-مواضيعها.....11-13

3-ب-أشهر خطبائها.....13-14

الفصل الثاني: خصائص الخطبة الدينية" خطبة حجة الوداع "أنموذجا.....15-32

1-خصائص الخطيب.....16-17

1- أ - سعة الثقافة.....16

1 - ب - جمال الخلق.....16

1- ج - سعة الخلق.....17

2-خصائص الخطبة.....17-24

2 - أ -اللغة.....17-20

2 - ب - حسن الافتتاح.....20
2 - ج - حسن الختام.....20
2 - د - التضمين في خطاب صدر الإسلام.....20-24
3- تحليل "خطبة حجةالوداع".....24- 32
3- أ - النص.....24 -25.
3 - ب - الخصائص الفنية لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم.....27- 32
الخاتمة.....33-34
قائمة المصادر والمراجع.....35-37

مـ ـقْـ ـدمـ ـة

إن الخطابة جزأ لا يتجزأ من كيان الأمم و تعد فن من الفنون النثرية التي سادت عبر العصور حيث اعتبرها العرب قديما من أشرف الكلام من حيث الفصاحة و البلاغة فهي لسانها الناطق و لما رأينا ما آلت إليه حال الخطابة الدينية في الأمة الإسلامية و العربية من خلل و خطب و جلل، رغبنا في العودة إلى زمن الرقي و الازدهار التي كانت عليه الخطابة آنذاك لكي ننهل من منبعه الصافي و مصدره الراقي و نستشف (في الوقت نفسه) أثر الإسلام في هذا اللون الخطابي علنا نخرج بنتائج بسيطة و قيمة في الوقت نفسه تستطيع من خلالها الخطابة في هذا الزمن أن تلتمس الطريق الصحيح نحو العودة إلى المكانة التي كانت عليها في ذلك الزمن، و لقد تطرقنا إلى هذا الموضوع ألما من الواقع المر الذي سئم فيه الناس الخطب المتكررة و الموضوعات المعادة و العرض الباهت، و اشتاقوا إلى زمن الخطب المؤثرة و المواعظ البليغة التي تشحذ الهمم و تبعث فيهم الشعور بالانتماء للأمة، و توقظ فيهم الإحساس بالعزة و الكرامة لانتمائهم للأمة الإسلامية لذلك نطرح الإشكالية التالية: ما هو واقع الخطابة الدينية في صدر الإسلام و ما هي أهم خصائصها و خصائص خطيبها و ما هي المكانة التي ارتقت إليها؟

و قد تطرقنا في هذا البحث إلى فصلين مع تحليل نموذج حول الخطابة متبعين المنهج الوصفي التحليلي إضافة إلى المقدمة و الخاتمة و التمهيد الذي يحتوي على لمحة عن الخطابة بشكل عام و أهميتها في حياة الشعوب و الأمم.

فالفصل الأول يتناول مبحثين، المبحث الأول يتطرق إلى البيئة الإسلامية للخطبة الدينية أما المبحث الثاني فيتناول أهم مواضيعها و أشهر خطبائها، و الفصل الثاني فيه أيضا مبحثين، المبحث الأول يتطرق إلى صفات الخطيب و المبحث الثاني أخص بالذكر الخصائص الفنية للخطبة في ذلك العصر، و في الأخير نموذج للتحليل.

و أما عن الصعوبات التي واجهناها في مراحل إعداد البحث نذكر ندرة الكتب الخاصة بفن الخطابة إلا أن الحمد لله و بفضله سعينا جاهدين قدر الإمكان من أن نستفيد و من الممكن أن نفيد غيرنا، فمن لا يدرك كله لا يترك جله.

ثم وإننا في نهاية هذا البحث، واستجابة لأمر الله تبارك وتعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ – لقمان 14 –،وقول النّبي:" لا يشكر الله من لا يشكر الناس " - رواه أبو داوود- نشكر الله عز وجل على نعمه الجزيلة، التي لا تعد ولا تحصى، ومنها نعمة التعلم وتيسير السبيل إليه، ومن ذلك توفيقه لنا في إتمام هذه الرسالة من غير حول منّا ولا قوة، فاللهم لك الحمد حمدا كثيرا.

الفصل الأول:واقع الخطابة الدينية في صدر الإسلام.

1- مفهوم الخطابة .

2-البيئة الإسلامية ومنزلة الخطابة الدينية فيها.

3- مواضيعها وأشهر خطباءها.

لقد كانت الخطابة منذ القديم سلاح المجتمع الإنساني في سلمه و حربه و في ترقيته و الإسراع به نحو المثل الأعلى الذي يجب أن يقصد إليه، و قد كانت ضرورة اجتماعية. فمنذ أن اجتمع الناس في مكان واحد و استوطنوه و تفاهموا بلسان واحد عرفوا الخطابة، لأنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة، فكان المتفوق بينهم يحاول أن يقنعهم فإذا أقنعهم فهو خطيب و كلامه خطبة.

كما أنه من الطبيعي أن تنشا أمور تستدعي تعاون المجتمع لجلب نفع مشترك أو دفع عدوان فيتصدر به النابهون من هذا المجتمع لقيادة الجماعة في تلك الخطابة و مثلما تسلح الناس في حياتهم بأسلحة مادية للدفاع و العدوان تسلحوا أيضا بسلاح معنوي هو اللسان و لا تزال الخطابة إلى الآن سلاح تتواصل به الأمم.[1] كما للخطابة شأن خطير و دور رائد في حياة العرب في العصر الجاهلي فلما جاء النبي صلى الله عليه و سلم بالدعوة الدينية الجديدة استدعت تلك الدعوة من أهلها ألسنة قوالة لتأييدها و نشرها فأصبحت تجادل بها خصومها، و تلك الدعوة العظمى إلى الإسلام قد أنشطت الألسن من عقلها و أثارت الخطابة من مكامنها فكان أن تعاظمت و عملت على اجتلاب النفوس بسحر بيانها فوق ما كانت عليه في جاهليتها.[2]

وإذا كانت الخطابة تحتل هذه المكانة العالية و ترتقي إلى مرتبة عالية في حياة المجتمعات و الأمم فإنها ترتقي أكثر إذا ما اقترنت بالمقدسات و العقائد فحينئذ تصبح مكانتها بمكانة الدين نفسه خاصة إذا تعلق الأمر بالدين الإسلامي باعتباره الدين الذي أعطى للسان الحظ الأكبر في الدعوة إلى الله و يتجلى ذلك في التوراة،التي ظهرت معالمها في العصر الإسلامي، و التي نستشفها في الشعر و الخطابة الجاهليين خاصة في شعر طرفة بن العبد، حيث يظهر هازئا من الاعتقادات و المثل العليا الجاهلية، و العرب لبثوا قبل الدعوة الإسلامية يتأرجحون بين تلك الدعوات القديمة الغامضة و الدعوات الجديدة كالمسيحية و اليهودية، دون أن يوافقوا

[1] ينظر: أحمد محمد الحوفي، في الخطابة، ، دار النهضة، مصر للطبع و النشر، ط5، مصر ، 2005، ص 6.

[2] ينظر: واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع ط 1، بيروت، ص 147.

إلى الإقناع بيقين حاسم يخرجهم من تلك الفوضى الفكرية و النفسية التي كانت تنعكس في الحياة الاجتماعية كالفساد و التفكك.....الخ[1]

1- تعريف الخطابة:

1 - أ - لغة:تعرف الخطابة في اللغة على أنها: « توجيه الكلام إلى الغير بقصد الإفهام»[2]

1 – ب-اصطلاحا:أما في الاصطلاح فهي: « فن مشافهة الجماهير بطريقة تلقائية تشتمل على الإقناع و الاستمالة »[3]

2 - البيئة الإسلامية و مكانة الخطابة الدينية فيها:

2- أ- البيئة الاسلامية:

*** الحياة الدينية:**

لقد كان العرب يعبدون الأوثان في الجاهلية و ينظرون إلى الوجود نظرة مادية محضة و إذا ما تمثلوا الوجود تمثلا معنويا فإن ذلك التمثل لا يعد و الأساطير الساذجة التي لا توحي بقوة عاطفية، و لقد جاء النبي يمثل لهم الله تمثيلا معنويا و يوحده في قوة واحدة بعد أن كان متعددا. و الواقع أن النزوع من تمثيل الله تمثيلا ماديا إلى تمثيله تمثيلا فكريا يدل على رقي العقل و قدرته على تجريد الأفكار. و إلى جانب هذا التقدم الفكري المعنوي نرى أن الإسلام جاب إلى العرب تقدما خلقيا، إذ ضبطهم في وحدة دينية أوشكت أن تعفى فيها آثار العصبية القبلية القديمة و

1ينظر: أحمد محمد الحوفي، في الخطابة ، ص 70 .

2محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ،دار صادر، ، ج4،ط4 لبنان،2005، ص98

3عبد الجليل عبده شلبي،الخطابة و إعداد الخطيب،د،ت، دار الشروق، مصر،ص 36

4 ينظر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العالم الإسلامي، ط2، دار المعارف، مصر، 1999، ص 220

5 سورة النساء الآية 156

6 سورة فصلت الآية 43

نستطيع القول أن الدين دفع الغرب إلى مثل عليا جديدة سيطرت غلى واقع الحياة العربية حتى اختلفت حياة العصر الجديد عن واقع العصر القديم أيما اختلاف.[1]

« فالإسلام كمل فضائل النفس و تزكيتها و جعل كل مسلم صالحا للائتلاف مع غيره بعد أن كانت فضائله في الجاهلية شخصية، أصبحت فضائل اجتماعية في الإسلام».[2]

*** الحياة الاجتماعية:**

أما دافع الحياة الاجتماعية الجديدة فيظهر في تمازج القبائل العربية و انصهارها نسبيا في وحدة الدين مما أدى ذلك إلى تبادل الأفكار و المثل و العبادات و نتج عنه في الآن ذاته نوع من التقادم الحضاري الضيق الحدود كالشعب الذي يفر إلى الحضارة و يبادل أخلاقه و أفكاره مع سائر الشعوب لا يصبح متحضرا في الحين بل يقتضي ذلك زمنا من الانتظار و ليس من الحكمة أن يجزم الباحث بالتقدم الحضاري في نفسية الشعب خلال سنوات قليلة جدا. لكن يمكن الحكم بأنه بدأ يتكون هذا التقدم. فالانطلاقة كانت من معينه صلى الله عليه و سلم.[3] كما نلاحظ أيضا تلك القوانين و الالتزامات التي ضبطت المجتمع و حدته من مختلف الانحرافات و الانزلاقات التي ضبطت المعاملات الاقتصادية فغاب الظلم وساد بين الناس نوع من الاستقرار الاجتماعي حيث أصبح لكل واحد الدور الذي يقوم به بلا عبد و لا سيد بل الجميع سواسية و يخضع لسلطة الواحد القهار.[4]

---

[1] ينظر، محمد أبو زهرة، الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص27.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، ط2، ص66.

[3] ينظر: إليا حاوي: فن الخطابة و تطوره عند العرب، دار الثقافة، دط ، بيروت، لبنان، دت، ص69.

[4] ينظر: إحسان النص: الخطابة في عصرها الذهبي، مطابع دار المعارف،دط، مصر،دت ،ص 28.

*** الحياة السياسية:**

انقسم المجتمع العربي عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى فريقين، فريق آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، وفريق آخر بقي على معتقداته، ومن هذا الانقسام نشأ الصراع السياسي فالفريق الأول يريد إثبات وجوده و تحقيق ذاته في ضل الدين الجديد أما الفريق الثاني فيقاوم هذه الثورة بشتى الطرق و أنواع الأساليب و يسعى إلى إبطالها فعذب الضعفاء و اضطهد الفقراء طيلة فترات الحروب.[1]

ثم بعد وفاة النبي صلى الله عليه و سلم، اختلفوا في شأن الخليفة أن يكون من المهاجرين أو الأنصار، فقام أبو بكر خطيبا فقال: منا الأمراء و منكم الوزراء و لما دفن الرسول صلى الله عليه وسلم، تولى أبو بكر الخلافة عنه و بدأت حركت الردة تخرج عنه، و استقر الأمر على الفتوحات فقط في عهد عمر رضي الله عنه لتحيا الفتنة بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقامت الفتنة الكبرى بين علي و معاوية رضي الله عنهما و نمت هذه الصراعات دور الخطابة.[2]

2- ب- مكانتها:

احتلت الخطابة المنزلة الأولى و كان ظهور الإسلام إيذانا بتطور واسع لألوانها الفنية. و ارتفعت ذكراها و علت مكانتها و عظمت منزلتها و قد كانت أداة الدعوة إلى الدين الحنيف و اللسان الناطق بالإسلامية.[3]

و نستطيع القول إن الخطابة قد تقدمت على الشعر و فاقته مكانة بعد أن كان هو الأسمى مكانة بين الفنون الأخرى، فقد كان الشعر أداة للتعبير عن المعاني الذاتية و

---

[1] ينظر: إحسان النص: الخطابة في عصرها الذهب، ص 29.

[2] ينظر: محمد طاهر درويش: الخطابة في صدر الإسلام، ج 1، دار المعارف، مصر،دت، ص 130.

[3] حسن الحاج حسن: أدب العرب في صدر الإسلام، ج1، المؤسسات الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،ط2 دب،1992، ص 105 .

الأغراض الجماعية، لكن سرعان ما ابتذل و صار من أجل التكسب لذلك غلبت عليه الخطابة كونها بقيت أداة قوية و فعالة في ميدان الصراع بين الإسلام و الكفر.[1]

و الخطابة الدينية باعتبارها أسمى أنواع الخطب كانت السباقة ميدانيا لأنها تعالج الإصلاح ما استطاعت في شتى الميادين التعبدية و الأخلاقية و قد حلت الخطابة الدينية مع المسلمين في البلاد التي فتحوها و كانت تشمل خطب الجمعة و الأعياد و حث الإسلام عليها، و جعل صحة صلاة الجمعة متوقفة على خطبتي الإمام كما كره السفر في وقتها، كما ألزم الحاضرين بالاستماع و الإنصات فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إذا قلت لصاحبك أنصت و الإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت و من لغى فلا جمعة له»[2]

هكذا صارت الجمعة مفروضة على المجتمع المسلم و أصبح يومها يوما مميزا عن سائر الأيام وهذا ما يبين الميزة العالية و المكانة الرفيعة للخطبة الدينية في عصر صدر الإسلام حيث أمر بها الله عز و جل الرسول عليه الصلاة و السلام فقال تعالى:«أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم و عظهم و قل لهم من أنفسهم قولا بليغا»[3]

3- مواضيعها و أشهر خطبائها:

3- أ- مواضيعها:

«اعتمدت الخطب الدينية في الدعوة إلى الإسلام و شرح العقيدة و تسيير الأحكام و هداية الناس ووعظهم و إنارة بصائرهم و إرشادهم إلى ما فيه الخير لهم، و قد يتعرض الخطيب في خطبته ليشرح المبادئ و الأسس التي تقوم عليها المذاهب الدينية.»[4]

---

[1] طاهر درويش ، الخطابة في صدر الإسلام، ج 1، ص 106.

[2] محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، ج5، دار الفكر للنشر و التوزيع، عمان ، الأردن، دت ص111.

[3] سورة النساء الآية 63.

[4] حسن الحاج حسن: أدب العرب في صدر الإسلام، ص 124.

كما اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة، و هو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة محاولا بكل الطرق أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون و منظمه.[1] و تندرج ضمن الخطابة الدينية موضوعات عدة أهمها:

*** الدعوة إلى التوحيد و نبذ الشرك و الكفر:**

كانت الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والكفر هي الهدف و الغاية الكبرى من رسالة الإسلام و قد انتشرت هذه المواضيع خاصة قبل هجرة النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة لهذا نجد هذا الموضوع أي الدعوة إلى التوحيد من أهم خصائص القرآن المكي حيث كان يعمل على إقصاء الوثنية من عقول القريشيين و غرس روح التوحيد حيث يقول صلى الله عليه و سلم:" آمركم بالإيمان بالله وحده فهل تدرون ما الإيمان؟....شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله.."[2]

***بيان الأحكام التشريعية:**

لقد كان الناس يدخلون في دين الله أفواجا كل يوم و هذا ما يجعلهم في حاجة لمن يعلمهم أحكام دينهم كالصلاة و الزكاة و الحج....فكانت الخطابة الدينية خاصة خطب الجمعة هي الوسيلة الأساسية في تبليغ هذه الأحكام التشريعية كقوله صلى الله عليه و سلم:" بني الإسلام على خمس، شهادة ألا إله إلا الله، و إقام الصلاة...." أو " صلوا كما رأيتموني أصلي..."[3]

***الوعظ و الإرشاد:**

و الغرض الذي يهدف إليه هذا النوع هو رفع الإيمان و تقوية العزيمة في النفوس و التذكير بالدار الآخرة، و الاستعداد لها و التزود بالتقوى فهي الكفيلة بشحذ همهم و كبت جماح النفس الأمارة بالسوء، و من أمثلة ذلك خطبة علي بن أبي طالب رضي

[1] ينظر شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العالم الإسلامي، ج 2، ط9، ص 106.

[2] ابن تيمية،الإيمان، دار الكتاب العربي، دط بيروت، لبنان،1997، ص 59.

[3] أبو عمرو أحمد بن عبد ربه:العقد الفريد،ج 4 دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1997، ص59.

الله عنه: «إن الدنيا قد أدبرت مرتحلة، و إن الآخرة قد جاءت مقبلة، و إن لكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل و لا حساب غدا حساب و لا عمل»[1]

***القصص الدينية:**

إن الله عز و جل أمر رسوله صلى الله عليه و سلم بذلك قصد الاعتبار و التذكر فقال سبحانه:«.....فأقصص القصص لعلهم يتفكرون»[2]، و قال أيضا:« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا»[3]، لذلك كان النبي صلى الله عليه و سلم بين الحين و الآخر يذكرهم بالأنبياء و المرسلين و قصصهم مع الأمم التي بعثوا المرسلين و قصصهم مع الأمم التي بعثوا إليها. كما كانت هناك مواضيع تجمع بين الطابع الديني و السياسي و الاجتماعي كالدعوة إلى الوحدة و الجهاد في سبيل الله و غيرها و تكون هنا الخطابة الدينية قد احتوت جميع الخطب الأخرى.[4]

3- ب-أشهر خطباء عصر صدر الإسلام:

كان رسول الله صلى الله عليه و سلم أخطب الناس و أفصحهم فقد أوفى الرسول صلى الله عليه و سلم جوامع الكلام، فكان لما يخطب تخشع القلوب و تدمع العيون فقد كان مؤيدا بالقرآن مدعما بالمعجزات.كان أفصح الناس لسانا و أحسنهم خطابة و ألينهم عبارة كما كان لديه أسلوب مشرق و بليغ. كيف لا و قد قال فيه ربه سبحانه: « و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».[5] و قد أوتي من اللسن و الفصاحة ما ملك به أزمة القلوب كأنما كانت المعاني و الأساليب موقوفة يشخصها بين يديه ليختار منها ما تهمس له الإسماع و تشخص له الأفئدة.

---

[1] الكندهولي: حياة الصحابة،،دار الفكر العربي، ط1، مصر،2005، ص 111.

[2] سورة الأعراف الآية 176.

[3] سورة يوسف الآية 03

[4] أبو محمد عبد الله مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار،ج1 ، دار الكتب العلمية،ط3، بيروت، لبنان، 2001 ص254

[5] سورة النجم الآيتين 03-04.

لقد وصف الرسول صلى الله عليه و سلم قائلا: أنا أفصح العرب غير أني من قريش ثم يأتي بعد ذلك صاحبه و خليله أبو بكر الصديق رضي الله عنه و عمر و عثمان و علي رضوان الله عليهم في الذروة من الفصاحة و البلاغة إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه و ترهيبه و بيان الرسول بمواعظه و تشريعاته و تسرب هذا البيان إلى نفوسهم و الأخذ بمجامع قلوبهم.[1]

و قد كان أبو بكر أول خليفة للمسلمين بعد الرسول صلى الله عليه و سلم حيث كان لسانه يتدفق تدفق السيل. فخطبته بعد موت النبي صلى الله عليه و سلم تشبه كلام الأنبياء. فأسكتت الأفواه و أصغت الآذان و بها عاد الهدوء إلى صفوف المسلمين حيث يقول فيها:" من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" كما ذكرهم بقوله سبحانه و تعالى:" و ما محمد إلا رسول".[2]

أما عمر رضي الله عنه كان بصيرا و عازما و بليغ اللسان، أما عثمان رضوان الله عليه فكان يهبط درجة عن عمر و أبي بكر في الفصاحة و البيان.[3]

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العالم الإسلامي، ط9، ص115.

[2] ناصر بن مسفر القريشي الزهراني: نسيم الحجاز، مكتبة العبيكان، دطالرياض، السعودية، ص 211

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العالم الإسلامي ، ص 124 .

الفصل الثاني: خصائص الخطبة الدينية"خطبة حجة الوداع "أنموذجا.

1- خصائص الخطيب.

2- خصائص الخطبة.

3- تحليل خطبة" حجة الوداع".

1-خصائص الخطيب في صدر الإسلام:

لقد اتصف الخطيب الإسلامي بما اتصف به الخطيب الجاهلي من فصاحة وبيان و جودة في النطق و قوة الشخصية و قد كمل الإسلام هذه الصفات فيه و زاده أخرى، فولدت فيهم قوة الروح بمقادير لا توازن بها أقدار الجاهلية إضافة إلى كل هذا:

1 - أ - سعة الثقافة:

كانت العرب في الجاهلية منعزلة عن باقي الأمم، فالعرب لم يعرفوا سوى الصحراء و حياتها اليومية لهذا لم يتناول الخطيب في خطبته مواضيع متنوعة لقلة ثقافته و نقص معرفته بالعلوم لذلك لم تكن دواعي الخطابة و أنواعها و ظروفها قد تشعبت و تعددت، لكن بمجيء الإسلام، ازداد أصلها علما إذا وجد وافي القرآن الكريم ينبوعا علميا لا ينضب ووجد وافي السنة معينا فكريا لا يجف، كما أن اختلاطهم بالناس زادهم علما بأحوال الناس و خبرة، فأصبح الخطيب الإسلامي أغزر علما و أوسع ثقافة من الخطيب الجاهلي و شتان بين هدي الجاهلية و هدي الرحمن.[1]

1-ب - جمال الخلق:

لم يقصد الإسلام بجمال الخلق أن يكون الخطيب وسيما، أسيل الخد، أدعج العينين، و إنما أن يكون مقبول الصورة، غير ذميم و لا منفر لأن ذلك يقربه إلى قلوب السامعين و الرجل صحيح الجسم حسن القامة لا يحتاج في إظهار شخصيته للتأثير في سامعيه عكس ما يحتاجه ضئيل الجسم ذميم الصورة، فالناس وولوعون بالقوة و السلامة و الاستواء منذ كانوا، فالرسول صلى الله عليه و سلم كان يختار من الخطباء أبلغهم و أجملهم كي يبلغ رسالة الإسلام إلى الفرس و الروم.[2]

---

[1] ينظر: أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص 17

[2] المرجع نفسه، ص 33.

1- ج- سعة الخلق:

تحلى الخطيب في صدر الإسلام بالصفات الحميدة التي دعا إليها الإسلام فكان يهدي إلى الحق و يبشر بالخير محذرا من التهلكة أو الغفلة، شجاعا و داعيا إلى الهدوء و الطاعة وهذا كله له دور في التأثير على النفوس فأخلاق الخطيب نفسه تنهر به إلى الإقناع ، حينما تكون الخطبة محضرة بشكل يبعث على الثقة ، كما أن الثقة بالخطيب تسهل وصول كلامه إلى مواضيع التأثير في السامعين ، فيصل كلامه إلى ستفاق القلوب و يفتح مغلقها [1].

2- خصائص الخطبة :

2- أ- اللغة :

امتازت لغة الخطابة في صدر الإسلام بالتنسيق و الإيجاد و حسن البدء و الختام حيث كان هدف الخطابة استمالة النفوس إلى ما يطلب منها بإثارة عواطفها حيث استعان الخطيب بلغة معبرة و أسلوب قوي واضح بعيد عن كل تكلف و غموض .

***– تطور الألفاظ و المعاني و الأساليب :**

كان لظهور الإسلام أثر في جميع جوانب الخطابة فلم يقتصر تطور الخطابة على أنواعها و أغراضها و إنما تشمل ألفاظها و معانيها و أساليبها .

- الألفاظ : لم يعن الخطيب في العصر الجاهلي باختيار المهذب من الألفاظ و لهذا جاءت غريبة وحشية ، و لما جاء الإسلام عمل على تهذيب هذه الألفاظ فأصبح يتخير من الألفاظ ، اللفظ السهل و العذب و المألوف حيث ابتعد الخطباء عن كل ما هو غريب فأخذوا من ألفاظ القرآن الكريم وولدوا ألفاظ جديدة و حملوها معاني جديدة تلاءم الواقع الإسلامي فإذا اكتسى المعنى الشريف ما يليق من الألفاظ كان أكبر وقعا على النفوس .[2]

- المعاني : لم يعتصم العرب قبل الإسلام بالغوص في المعاني ، و لم يهتموا بتزيينها و إعمال الفكر فيها ، كما أنهم لم يستعينوا بالمجاز و الكناية في إبرازها لذلك لأن طبيعة حياتهم البدوية كانت محدودة على حياتهم اليومية و لهذا جاءت جل خطبهم جملا قصيرة متناثرة فخطبهم لا تتحمل معنا أصليا ، فلما جاء الإسلام غاصوا و

[1] أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة ، ص 35.

[2] أنظر: محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ج1، ص 449.

توسعوا في المعاني باتساع مجال حياتهم و أحسنوا نظمها و ترتيبها متأثرين بالقرآن و معانيه فنسجوا إلى منواله .[1]

- **الأساليب :** تأثر الخطباء كثيرا بالأسلوب القرآني ، فحاولوا النسج على منواله و اتبعوا طريقته في البيان و حسن الأداء و اقتبسوا منه و استشهدوا به في خطبهم و جعلوه مثلهم الأعلى و حاولوا أن يصوغوا أساليب محكمة معتمدين على القرآن و بلاغته في التعبير ، كما سعوا إلى أن تكون الأساليب متجانسة و أحكموا العبارات ، و تجنبوا الأساليب الوحشية التي كانت في الجاهلية .[2]

* - **الإطناب :** يتسم الأسلوب الخطابي في صدر الإسلام بالإطناب في حين اتسم بالإيجاز في العصر الجاهلي ، و إذا كان الإطناب غير محمود في الأسلوب الكتابي فإنه محمود في الأسلوب الخطابي و موضوعي في الخطابة السياسية و الدينية و لكنه غير مستطاع في الخطابة الحربية لأن كلمات محمسة تلقى في الميدان قبيل المعركة فظروفها تحتم الإيجاز، و قد يضطر الخطيب الديني إلى الإيجاز مراعاة لحالة الجماعة و الزمن و لهذا لا ينفي أن من خصائص الأسلوب الخطابي الإطناب، وقد احتاج الخطباء للإطناب في شرح مبادئ الإسلام و شرائعه و لتبليغ كتاب الله و دعوة الكافرين إلى اعتناق الإسلام، و هذا لا يعني أنهم أطالوا في جل خطبهم، بل نجد لهم خطبا قصيرة في غاية البيان و البلاغة، فإن استدعى إطنابا أطنب، و إن تطلب تقصيرا أوجز على أن لا يطيل في غير خطل و لا إملال و يوجز في غير تعمية و لا إخلال و من وسائل الإطناب التي اعتمد عليها الخطباء في صدر الإسلام التكرار المعنوي و هو التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة بالإضافة إلى التفصيل و الشرح و توليد المعاني ليعمق أثر الخطبة في نفوس سامعيها.[3]

***- الوضوح:** اعتمد الخطباء على الوضوح متأثرين بالقرآن الكريم بعد أن كانت العرب في الجاهلية تميل إلى استعمال الغريب في الخطب و بمجيء الرسل تخلى الخطباء على ألفاظ الغريبة المستهجنة و انصرفوا إلى استعمال المألوف و الواضح و يعد الوضوح أسا الخطابة حيث تسم الأسلوب خطابي بدوره بسهولة العبارة ووضوح المعنى لأن فهم المعاني أساس الإقناع و الاستمالة و هذا ا يعني أن يكون الكلام مبتذلا سوقيا و شائعا شعبيا و أنما يكون ساميا في الوضوح و السهولة يفهمه أنصاف المتعلمين و أن يوافق السامعين و يوائم الموضوع و ينبئ عن قدرة الخطيب البيانية و قد تجنب الخطيب في صدر الإسلام التكلف من اختيار الكلام لأن ذلك من شأنه أن يضفي على الخطبة نوعا من الغموض لأنه من الخطأ أن يغرب الخطيب في أسلوبه و يتسامى بتعبيره تساميا يغلق

---

[1] ينظر: محمد طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، ،ج1، دار المعارف، د ط،دت،ص 150.

[2] ينظر،أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص ص 163-164

[3] ينظر، المرجع نفسه، ص 128.

معانيه إلى السامعين، لذلك سعى الخطيب أن تكون ألفاضه واضحة في معانيها، و من الوسائل التي تساهم في إجلاء المعنى:

- إلمام الخطيب بموضوعه و فهمه فهما عميقا دقيقا حتى يستطيع أن يعبر عنه تعبيرا جليا مفهوما.

- اختيار الكلمات المناسبة للموضوع و السامعين حتى يكون لمعانيها دلالة في الذهن و القلب.

- ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا حتى يكون هناك ترابط في المعاني و الأفكار.[1]

ـ قلة السجع: اعتمد خطباء الجاهلية على السجع لتحسين الكلام و تنميقه فكان الخطيب منهم يتكلف كل التكلف كي تكون خطبته مليئة به ظنا منه أنها تزيد الخطبة وقارا و بهاء. و بمجيء الإسلام قل استعماله لأن الجاهليين استخدموه فبع أغراض لا يحبها الإسلام مثل سجع الكهان، و لم نعد نراه إلا في لسان الأعراب و أهل البوادي.[2]

و طبيعي أن تقضي هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق و روح الإسلام و لا نقصد سجع الكهان فقط الذي كان يرتبط بدينهم الوثني بل هناك مواضيع أخرى.[3]

و إذا كنا قد لاحظنا غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في العصر الإسلامي أنه يكاد ينحصر تماما عن الخطابة إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تقدم على الخلفاء حيث يقول الجاحظ: كانت الخطباء تتكلم عن الخلفاء الراشدين فتكون في تلك الخطب أسجاعا كثيرة، و كان الخلفاء بعد عمر رضي الله عنه ينكرون السجع على محدثيهم و كانت تخلوا تماما من السجع إلا ما جاء عفوًا في الحين البعيد بعد الحين و لكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهموا جزالة اللفظ و رزانته بل كان هم كل خطيب أن يحسن قوله و يصوغه صياغة رائعة.[4]

و هذا لا يعني أن الخطباء كرهوا السجع في ذاته و إنما في اصطناعه فقد يكون السجع جميلا يضفي على الكلام رونقا و جمالا مثل السجع الذي نجده في خطب الرسول صلى الله عليه و سلم كقوله: " .....إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم و إن لكم نهاية فانتهوا إلى

---

[1] ،أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص 129.

[2] الجاحظ: البيان و التبيين،ج1،ص 45.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، ج2، ط9، ص107.

[4] المصدر نفسه، ص 119

نهايتكم، إن المؤمنين بين مخافتين، بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به و بين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه.[1]

2 ـ ب - حسن الافتتاح: اعتنى الخطباء منذ القديم بمقدمات خطبهم، كما اعتنى الشعراء بمطابع قصائدهم، إلا أنهم في صدر الإسلام سلكوا في بدأ الخطب و ختامها سبيلا يوافق تعاليم الإسلام، فالتزموا بافتتاحها بحمد الله و الثناء عليه و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم و في هذا يقول الجاحظ:" إن خطباء السلف الطيب و أهل البيان من التابعين بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم يبدأ صاحبها بالتحميد و يستفتح كلامه بالتمجيد" البتراء" و يسمون التي لم توشح بالقرآن و تزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم "شوهاء".[2]

و قد ابتدأ الرسول صلى الله عليه و سلم حجته في خطبة الوداع بقوله: " الحمد لله نحمده و نستعينه ، و نستغفره و نتوب إليه و نعوذ بالله من شرور أنفسن و من سيئات أعمالنا من بهد الله فلا مضل له ،و اشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له و اشهد ان محمد رسول الله ....." [3] و في افتتاح خطبة أبي بكر في الوعظ : "الحمد لله ، احمده و أستعينه و استغفره و أؤمن به و أتوكل عليه و استهدي الله بالهدى وأعوذ به من الضلال و الردى ..." [4]

2 ـ ج ــ حسن الختام : لم يلتزم خطباء عصر صدر الإسلام بقول معين في ختام الخطب و لكنها كانت تختم في الغالب الأعم بالدعاء و بآي من القران الكريم او الاستغفار ، فجاء آخر كلام عمر في إحدى خطبه " اللهم لا تدعني في غمرة، و لا تأخذني في غرة، و لا تجعلني من الغافلين. و جاء في آخر كلام أبي بكر في إحدى خطبه كذلك:" اللهم صلي على محمد عبدك و رسولك أفضل ما صليت على احد من خلقك، و زكنا بالصلاة عليه و ألحقنا به و أحشرنا في زمرته.[5] و قد جاء في آخر كلام أبي بكر قوله تعالى: " و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل"[6]

2- د ـ التضمين في خطبة صدر الإسلام:(القرآن، الحديث):

*** القرآن:** اكتسبت الخطابة طابعا إسلاميا بعد ظهر الإسلام و هذا الطابع برز في جميع أنواع الخطب سواء كانت دينية،سياسية أو اجتماعية. لكنه كان أبرز في الخطبة الدينية

1الجاحظ، البيان و التبيين، ص 302-303.

2المرجع نفسه .ج2، ص05.

3 المصدر نفسه.ج1،ص 116.

4ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص 60.

5. المصدر نفسه.ج4، ص60.

6 سورة آل عمران، الآية 144.

أكثر من الأنواع الأخرى. ومع هذا فإننا نجد أن جميع الخطب تعج بالأفكار الإسلامية و المعاني القرآنية كما عرف عن خطباء الإسلام أنهم انبهروا بالقرآن الكريم و حاولوا محاكاة أسلوبه و بذلك بدؤوا يتطلعون إليه في خطبهم لإثرائها و الإقتباس من ألفاظه و معانيه و آياته.[1]

و لأن القرآن كان بالنسبة لهم المثل الأعلى للبلاغة العربية فقد جعلوه البحر الذي يغرفون منه لذلك العديد من الخطباء إذا لم نقل كلهم يتمثلون به في خطبهم و يقتبسون منه على غرار الرسول صلى الله عليه وسلم و الخلفاء الراشدين الذين ضمنوه في خطبهم كيف لا و المشركين أنفسهم كانوا يحاكونه، و يفكرون بما فيه ثم يقلدونه و كان للتأثير بالقرآن الكريم صور منها محاكاة أسلوبه و نهج منهجه في الجدل و الحجج و إتباع طرائقه في الاستدلال و الإقتباس و التمثيل به.[2]

و من صور التأثير بالقرآن الكريم:

ـ اشتمال الخطبة على آية أو أكثر من القرآن تأييد الفكرة أو تمثيلا لحالة من الحالات كقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة له يوم الجمعة الأولى بالمدينة المنورة:"..... و الذي صدق قوله و أنجز وعده، لا خلف لذلك، فغنه يقول عز و جل: " ما يبدل القول لدي و ما أنا بظلام للعبيد." فاتقوا الله في عاجل أمركم و آجله في السر و العلانية.[3] ففي هذه الخطبة اقتبس الرسول صلى الله عليه و سلم من القرآن الكريم و بالضبط من الآية التاسعة و العشرون من سورة "ق" و لأبي بكر خطبة قالها في سقيفة بني ساعدة، اشتملت على آية من سورة التوبة الآية 100 . و أكثر الناس ولادة في العرب و أمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه و سلم أسلمنا قبلكم و قدمنا القرآن عليكم فقال تبارك: " و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان" فنحن المهاجرون و أنتم الأنصار.[4]

كما أن لعثمان بن عفان رضي الله عنه خطبة قالها لما انتهى إلى الخلافة مستشهدا فيها بالآيتين(45-46) من سورة الكهف حيث يقول:«.....و اطلبوه الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا بالذي هو خير فقال عز و جل: " و أضرب لهم مثلا الحياة الدنيا

---

[1] ينظر: محمد طاهر درويش، فن الخطابة في صدر الإسلام، ج1، ص 116.

[2] ينظر، المرجع نفسه، ج1، ص 449.

[3] القزويني الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمان، الإيضاح المختصر، تلخيص المفتاح في المعاني و البيان و البديع، ،دار صبيح الجمالية الحديثة، ط9، القاهرة، مصر، ص 128.

[4] ابن عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج4، ص 59.

كماء أنزلناه من السماء فأختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح و كان الله على كل شيئ مقتدرا. المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا و خير أملاً»[1]

الاقتباس:

و الاقتباس هو أن يأخذ المتكلم شيئا من كلام غيره فيدرجه في كلامه بعد التصميم له لتأكيد ما أتى به من معنى، و إذا كان قليلا فهو إبداع و إن كان كثيرا فهو تضمين.[2] أي تضمين الخطبة شيء من القرآن و كأنه جزء من كلام الخطيب كقوله صلى الله عليه و سلم في فتح مكة: "..... يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".يا معشر قريش ما تروني أني فاعل بكم؟ خيرا أخ كريم و ابن أخ كريم. [3] ففي هذه الخطبة أخذ الرسول صلى الله عليه و سلم جزءا من سورة الحجرات الآية 13 و أدرجها في خطبته و كأنها جزء من كلامه، كما اقتبس أبو بكر الصديق من قوله تعالى: " و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" وهي الآية 144 من سورة آل عمران و ذكرها في خطبته في فتنة الردة ليثبت قلوب المسلمين على الإيمان و يذكرهم بفضل الله و رسوله فقال" و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا و سيجزي الله الشاكرين".[4] و نجد عمر رضي الله عنه يخطب في قومه يحثهم على القناعة و يدعوهم إلى التخلق بأحسن الأخلاق و ينهاهم عن الشح، فاقتبس من سورة التغابن الآية16 حيث يقول عز و جل: " و أعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق* و

[1] الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج3، ص 243.

[2] علي محفوظ: فن الخطابة و إعداد الخطيب ص 62.

[3] ينظر: محمد طاهر درويش، فن الخطابة، ج1، ص211.

[4] أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، البداية و النهاية،ج6، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1994، ص312.

أنفقوا خيرا لأنفسكم من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون"." أيها الناس أطيبوا مثواكم و أصلحوا أموركم، و اتقوا الله ربكم".[1]

* **الاستشهاد بالحديث :** كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فصيح الكلام، آية في البلاغة و البيان حتى أنه قال عن نفسه " أعطيت جوامع الكلام " و قالت فيه السيدة عائشة"ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يسرد سردكم هذا و لكن كان يتكلم كلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه ..." وللجاحظ في كتابه البيان والتبيين واصفا لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة بلاغته قال " فلم ينطق إلا عن ميزات حكمته، ولم يتكلم إلا بكلام قد حق بالعصمة، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا بين عن فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم "[2] زمن هذا ندرك سبب استشهاد الخطباء بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وذكرها في خطبهم ولقد وقفنا هنا على بعض الشواهد التي نوضح منها:

- أن يستشهد الخطيب بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الذكر أن هذا الكلام لرسول الله ويكون هذا الاستشهاد ضمن الخطبة تأكيدا لحالة من الحالات كقول عثمان بن عفان "... لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : من زل فليتب ومن أخطأ فليتب، ولا يتمادى في الهلكة إن من تمادى في الجور كان أبعد عن الطريق "[3] ، كما أن قول علي في هذه الخطبة يدل على الاستشهاد بالحديث فيقول " ولا يخرجوكم من باب الهدى، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسقوهم فتضلوا ولا تخالفوهم فتجهلوا ولا تتخلفوا عنهم فتهلكوا فإنهم اعلم منكم ..."[4]

-أن يستخدم الخطيب أسلوبه و لكن في معنى الحديث أي أن يفهم الحديث و يعيد صياغته بأسلوبه الخاص مثال على هذا نذكر خطبة علي بن أبي طالب " ... ليس المسلم بالخائن إذا أؤتمن، ولا بالمخلف إذا وعد، ولا بالكاذب إذا نطق ..."[5] وهنا نجد أن علي بن أبي طالب استشهد في الخطبة من الحديث الشريف آية المنافق ثلاث :' إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان " .

[1] ينظر، محمد طاهر درويش: فن الخطابة في صدر الإسلام، ج1، ص 211.

[2] الجاحظ البيان و التبيين: ج2، ص 17.

[3] الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، ج5، ص 111.

[4] الهادي كاشف الغطاء: مستدرك نضج البلاغة، ص49.

[5] المرجع نفسه، ص21

- قد نجد بعض الخطباء يذكر حديثا شريفا ولم يذكر بأن الحديث للرسول صلى الله عليه و سلم فمهد له وأدرجه ضمن كلامه كقول علي بن أبي طالب "... المسلم من بادر وأمر العامة و خاصة أحدكم بالموت "[1].

لقد أخذ علي رضي الله عنه هذه القول من الحديث النبوي إذ يقول فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم:" المسلم من سلم الناس من لسانه و يده".

3- تحليل خطبة "حجة الوداع" :

3ـ أ ـ النص:

« إن الحمد لله نحمده و نستغفره و نتوب إليه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، و أحتكم على طاعة الله، و أستفتح بالذي هو خير. أما بعد: أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا ادري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، في موقفي هذا، أيها الناس إن دمائكم و أموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدها لمن ائتمنه عليها و إن ربا الجاهلية موضوع، و أول ربا أبدأ به هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب. و إن دماء الجاهلية موضوعة و أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب و أن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة و السقاية و العمد فرد و شبه العمد ما قتل بالعصا و الحجر، و فيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه و لكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم.

[1] أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، البداية و النهاية، ج7،ص 226

أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما و يحرمونها عاما ليوطئوا عدة ما حرم الله، و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، و واحد فرد ذو القعدة و ذو الحجة و محرم، و رجب الذي بين جمادى و شعبان ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حق، و إن لكم عليهن حق، ألا يوطئن فرشكم غيركم، و لا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم، إلا بإذنكم، و لا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن، و تهجروهن في المضاجع، و تضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين و أطعنكن فعليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف، و إنما النساء عندكم عواني فعليكم رزقهن لا يملكن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، و استوصوا بهن خيرًا.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، و لا يحل لامرئ مال أخيه، إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد،فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض فإني تركت فيكم ما لو أخذتم به لن تظلوا كتاب الله و سنتي. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، و إن أباكم واحد، كلكم لآدم و آدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، و ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قسم لكم وارث نصيبه من الميراث و لا يجوز وصية في أكثر من الثلث، و الولد للفراش، و للعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله و الملائكة، و الناس أجمعين و السلام عليكم و رحمة الله».[1]

(1) ابو عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ج 4، مكتبة العبيكان، ط 1، السعودية 1998، ص 214.

- التحليل:

ألقى النبي صلى الله عليه و سلم خطبة الوداع في حجة الوداع من جبل الرحمة بعرفة و هي خطبة لخص فيها النبي صلى الله عليه و سلم رسالة الإسلام التي أمضى حياته في تبليغها، استهلها بحمد الله و الثناء عليه و التوحيد و أوصاهم بالتقوى و طاعة الله و يظهر من كلامه إشارته إلى أنها قد تكون آخر حجة له، فبدأ في المقطع الأول بحرمة الدماء و المال و الأعراض لأنها منبع كل السرور و النزاعات، و أمرهم بتأدية الأمانات إلى أصحابها و ألغى العادات و التقاليد القبيحة الموروثة عن الجاهلية و على رأس هذه العادات السيئة و المستهجنة الثأر للأموات لأنه إحياء للعصبية القبلية التي دفنتها الشريعة الإسلامية، و أكل الربا لما فيه ظلم و استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، و أن مآثر الجاهلية ملغاة دينا غير السقاية و السدانة من قتل النفس بالعمد لأنه يقود صاحبه إلى نار جهنم و الفخر بالأنساب. ثم يأتي في المقطع الثاني ليبين تحريم طاعة الشيطان و أن الانتصار الحقيقي هو التغلب على النفس في كبت جماحها و ميلها إلى الخطيئة و الرذيلة كما بين لهم التطابق الزمني فقد كانت الأشهر الحرم قد تطابقت مع أصلها عندما خلقها الله، فوضع بذلك حدا لفوضى المواقيت و التلاعب بالأشهر فذكر لهم الأشهر الحرم و هي أربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم و رجب.

ليأتي في المقطع الثالث حيث يوصي الرجال بالإحسان في معالجة الزوجة لمالها من دور في تبليغ رسالة الإسلام و في إصلاح المجتمع خاصة أن الحفاظ على دوام و استمرارية الأسرة شرط في بناء مجتمع إسلامي متماسك فلا يلجا الزوج إلى الطلاق حتى و إن ارتكبت المرأة فحشا قوليا أو فعليا، فالنبي صلى الله عليه و سلم أعطى حلولا أخرى غير الطلاق كالهجر و الضرب غير المبرح تفاديا من الوقوع في الطلاق و هو أبغض الحلال إلى الله، و أوصى بالنساء خيرًا و أظهر لهم أنهن أسيرات عندهم لا يملكن شيئًا لأنفسهن.

و في نهاية هذه الخطبة تبين لهم أن الأخوة الإيمانية واجبة لأنه لا يحل أكل أموال الناس بالباطل إلا بطيب نفس منه لقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل و تدلوا بها إلى الحكام تأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم و أنتم تعلمون".و أمرهم بالاستمساك بكتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه وسلم و ما انبثق عن هذين المصدرين من إجماع و قياس و ذلك حتى لا يتحول الحاكم إلى دكتاتوري يحكم بين الناس بأهوائه و آرائه و حسب مصالحه الشخصية و بين العلاقة بين الحاكم و المحكوم و هي علاقة سمع و طاعة.

و ختم رسالته كما بدأ بالحث على التقوى و عدم الاقتتال على المال و الدنيا و التفرقة من أجلهم لأن الأمة الإسلامية أمة رسالية تبليغية و ليست أمة نفعية.

و نلاحظ في خطبة الوداع أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يورد جملا اعتراضية يشهد فيها ربه بلسان أمته أنه بلغ رسالته لقوله تعالى:" و يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم و جئنا بك على هؤلاء شهيدا و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء هدى و رحمة و بشرى للمسلمين" النحل 89.

3 ب- الخصائص الفنية لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم :

* سمو النزعة الجمالية:

تتصف خطب النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مطالعها بمسحة جمالية متفوقة خاصة في الصلوات التي يبتهل فيها إلى خالقه، وبغض المقاطع التي صور فيها الدنيا والآخرة، وهذه المقدمات تتواتر فيها الأسجاع تواترا داخليا و طبقا بما لم تدركه الأسجاع الجاهلية أي كان استعماله في الجاهلية لتنميق الكلام وتحسينه وكان متكلفا لكن في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم كان عفويا ومتآلفا حيث هناك تآلف بين السجع والمعاني العميقة وهذا ما أدى بخطب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مستوى من

الإبداع، حيث كان أسلوبه يتميز بالقوة في التعبير والتصوير إضافة إلى جمالية البيان وحسن الأداء، إذ كانت هذه الخطبة تتميز بأسلوب بلاغي عميق الدلالة موجز المعاني، كما أنها تحتوي على ألفاظ جديدة غير مستعملة في العصر الجاهلي فكانت معظم ألفاظ الخطب تؤدي مضمونا إنسانيا وروحيا عميقا تصاحبه النشوة من متانة العبارة وغنائيتها العذبة، وقد صيغت هذه الخطبة بأسلوب نبوي فريد عرف به صلى الله عليه وسلم دون غيره من سائر البشر إذ وصف الجاحظ أسلوب خطابته وصفا دقيقا قائلا « إنه جانب ..... استعمل المبسوط في موضع البسط، وهجر الغريب الوحشي فلم ينطق إلا عن ميراث حكمته لم يتكلم إلا بكلام حق بالعصمة وهو الكلام الذي ألقى عليه الله المحبة »[1] ويعني الجاحظ بقوله هذا أن أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم سهل، بسيط وبليغ في الوقت ذاته، عدم استعماله للألفاظ الغريبة والمستهجنة ولا يتكلم جملة إلا وفيها دلالة و حكمة يراد التصريح بها أو الحث عليها وهذا ما جعل الله يشيد ويحب الكلام الذي يلقى من طرف لرسول صلى الله عليه وسلم وإضافة إلى كل هذا يضيف الجاحظ في وصفه لأسلوب النبي أنه أسلوب بلاغي مشرق فتق معاني هذه الخطاة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله فهو الذي رسمها وفجر ينابيعها حيث أصبحت مادة الخطباء من بعده .

*** الإضعاف من السجع:**

النبي صلى الله عليه وسلم لم يتخلى عن السجع تخليا تاما لكنه أضعف من شأنه ولم يدعه عمادا للتأثير الجاهلي، وإذا ما خطر شيء منه في بعض المواقف فإنه يرد ورود الفطرة أو البداهة دون تكلف، وإذا عدنا إلى بعض المقاطع الموجودة في الخطبة نجد أنها تدنوا إلى النشر المرسل المباشر لخلوها من الإيقاعات المدوية، أو نوجز ذلك كله

1- حسن حسين الحاج، أدب العرب في صدر الإسلام، ص 115 .

بالقول أن العناية باللفظ والشكل كانت تغلب على الخطابة الجاهلية، فيما غلب الموضوع ومعانيه على خطب النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يقصر فيها باللفظ فخطبة النبي صلى الله عليه وسلم خطبة إلزامية، إيجابية تؤدي إلى بقاء تأثيرها الدائم في النفوس، فلم يقتصر النبي صلى الله عليه و سلم فيها على الغاية الجمالية لا بقدر ما انساق إلى ذلك في سبيل الإقناع والتبشير، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكره السجع في ذاته وإنما في اصطناعه فقد يكون السجع جميلا يضفي على الكلام رونقا وجمالا مثل السجع الذي نجده في خطبه كقوله " ... إن لكم معالمكم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمنين بين مخافتين ، لين عاجل قد مضى لا يدري الله صانع به و بين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه " فالرسول عند استعماله للسجع يستعمله من أجل أن يضفي للكلام نزعة جمالية تزيد رونقا في الألفاظ وهذا لا يعني أن الرسول اعتنى بالسجع بل على خلاف ذلك فهو اعتنى بالمعنى والمضمون التي تتضمنه المفردات ولا يعطي اهتماما للشكل أو اللفظ، فكان نصب عينيه أن تكون خطبته ذات أسلوب بلاغي دقيق دون تكلف يوصل به الفكرة المراد التصريح بها.

*** تجدد الموضوعات:**

إذا أجرينا مقابلة بين خطب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تقدمه من الجاهليين نرى أن مواضيع الخطبة ومعانيها قد انصرفت إلى اتجاهات أخرى، حيث كان الجاهلي يحث على السلم وتجنب الحرب لمنع الضرر وإحلال النفع، بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحد من دون ذلك حدود الخير والشر، كما أن تأملات الجاهلي اقتصرت على النظر الساذج في صفة الوجود بينما النبي صلى الله عليه وسلم كان يتأمل ويستطلع فيها وجه الله وترسم عبرها تعاليم التقوى والإحسان والثواب والعقاب الذي لم

يقدر الجاهلي على إدراكه، فالنبي كان يستمد خطبه من تعاليم رسالته إذ تقتضي كل جملة من خطبه بحثا لا كفاية فيه عن النفس والروح والحياة وما وراءها، فالنبي جعل الخطبة تسير لأعمق تجارب الروح والعقل والإيمان أكثر مما لمح له الخطيب الجاهلي ببعض المعاني والنظرات المتتالية الفاقدة للثقافة، ومن هنا نلاحظ تعدد المواضيع في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث نجد أنها موضوعات أخذت من صلب المجتمع المعاش في ذلك الوقت، حيث حاول الرسول في خطبه الإلمام بجميع المواضيع أو المشاكل المطروحة آنذاك عكس المواضيع التي كانت تطرح في العصر الجاهلي لأن أغلبها كانت تعود بالنفع على أصحابها فلا تشتمل كل طبقات المجتمع، لكن الرسول في خطبه هذه كانت متعددة المواضيع لا تقتصر على موضوع محدد، ففي خطبة حجة الوداع نجد أن الرسول تحدث عن مواضيع عديدة منها: تحريم المال والدماء والتنازع بهما، أيضا مراعاة النساء والحرص عليهن، بالإضافة إلى حرصه على نصح المؤمنين وحثهم على أن الانتصار الحقيقي في الحياة هو الانتصار على النفس في كبت جماحها وميلها إلى الخطيئة والرذيلة وهذه المواضيع التي عالجها الرسول في خطبته استمدها من فلسفة الدين في وجهها الإيحائي والإيماني وبهذا نقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرف كيف يجدد في المواضيع وكيفية معالجتها ضمن ما تحث عليه تعاليم الدين الإسلامي.

*** استعماله لغة تشريعية:**

وفي الجانب الآخر من خطب النبي صلى الله عليه وسلم نجد تبسيط للأسلوب إذ تخلى فيه عن العبارة الجاهلية الفضفاضة الذاهبة إثر اللفظ كثير الجلبة، وعمد إلى التعبير المباشر في الخطب والمقاطع التعليمية العامة والصلوات لتي يكسوها بحلة جمالية فائقة

إذ يقول في إحدى خطبه " إن الله عز وجل قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهري هذا/ في حياتي ومن بعدي " ففي هذه الجملة نرى أن المناسبة التشريعية اقتضت التأكيد على الجمعة، مثبتا الانصراف عن الأسلوب البلاغي، فكرر الألفاظ الواحدة في سبيل توضيح الأيام و الشهور والأعوام في مواقعها مما يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم أخضع العبارة الخطابية لضرورة الإفصاح والتوضيح العاديين المباشرين وأدناها في بعض الفقرات إلى ما يشبه الحديث التعليمي العاطل عن التوشيحات البيانية والإيقاعات الخطابية وتعتبر هذه ميزة من ميزات اللغة التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه.

* **قوة العاطفة:** ونعني بها إثارة الخطيب الحماسة في قلوب السامعين، وصدقه فيما يدعو إليه وتأثره بما يقوا، فالمتأثر يؤثر، والكلام إذا خرج من القلب دخل القلب بلا استئذان، وهذا ما نلمسه في الرسول صلى الله عليه وسلم وخطبه، فقد أضاف في خطبته إلى صدق لهجته وفصاحتها دغدغة العواطف وإثارة الميول، فملك القلوب واستمال العقول، ومشى خلفه الفئات من الناس وذلك بسبب بلاغة كلامه وقوته في اللغة وقدرته على التأثير في نفوس السامعين، فنلاحظ في هذه الخطبة عاطفة الرسول صلى الله عليه وسلم الصادقة وإيمانه بالفكرة وحرصه على إيصالها واضحة إلى جل السامعين، ورغبته الجامحة في أن يأخذ الناس بها في حياتهم، حيث كانت للرسول صلى الله عليه وسلم عاطفة جياشة عرف كيف يستعملها في خطبه ويحاول بها إقناع الناس لإتباع ما يحتم عليه، كما كانت للرسول صلى الله عليه وسلم رباطة جأش في النفس ومن خلالها يستطيع أن يقنع بها الناس في خطبه وهذا ما حرص عليه في هذه الخطبة، حيث كان يقول قولا لا يستدل عليه بالحقيقة التي لا مراء فيها ولا اختلاف بين الناس.

***- استنانه لسنة المقدمات والنهايات الخطابية:**

استن النبي صلى الله عليه وسلم في سنة المقدمات التي تستهل غالبا بالحمد لله والاستغفار والشكر، وهذا ما لم يوجد في الخطب الجاهلية حين نجد أن الرسول في هذه الخطبة بدأها بقوله " الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مظل له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا رسول الله ... " وهكذا توالت مقدمات الخطب ولزمتها من تلازم الدين والدنيا في الخلفاء والقادة والأمراء وولاة المسلمين حتى أن بعض الخطب التي بدأها أصحابها دون هذه المقدمات سميت بخطب بتراء لأنهم يباشرون فيها القول مباشرة.

و إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستهل خطبه بالحمد والشكر وما إليهما، فإنه دأب على إنهائها بعبارات صارت من بعده تقليدا للخطبة الإسلامية ففي الخطبة الأولى التي ألقاها في المدينة المنورة أنهى كلامه بقوله: " السلام عليكم، وعلى رسول الله ورحمة وبركاته" وأنهى خطبة ثانية بقوله: " السلام عليكم ورحمة الله " أما الخطبة التي ألقاها في أول جمعة جمعها بالمدينة فقد أنهاها بقوله " الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم " وهكذا صارت تنتهي الخطب بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ونذكر على سبيل المثال ما جاء في آخر كلام أبي بكر في إحدى خطبه حيث قال: " اللهم صلي على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته"[1]

1- ابن عبد ربه، العقد الفريد ج4، ص 60.

ومن هذه النهاية المرفقة لخطبة أبي بكر نلاحظ أنها نفس النهايات التي كان يستخدمها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبه.

الخاتمة

من النتائج المتوصل إليها في هذا البحث نذكـر:

في عصر صدر الإسلام تبين لنا أنها فن من الفنون الأدبية الحية، فهي صالحة لكل زمان ومكان كلما توفرت لها الأسباب والدواعي، وقد تطور هذا النوع من الخطابة في موضوعاته بمجيء النهضة الإسلامية كما أن العرب انبهروا بالقرآن الكريم وحاولوا النسج على منوالهم فجاءت خطبهم قمة في البلاغة والبيان.

كما أن الخطيب الإسلامي زاد علما وثقافة بالإسلام وارتفع بصفاته إلى كل ما يكتمل الخطيب قلبا وقالبا، روحا وجسدا، إلى جانب هذا فقد ارتقت مكانة الخطابة الدينية واحتلت مرتبة عالية حيث أصبحت لها أثر كبير في الحياة بصفة عامة.

ثم لا نغفل دور الصراع الديني على الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم حروب الردة، وبعد الفتنة الكبرى بمقتل عثمان رضي الله عنه، فقد كانت بمثابة وقود تتزود منه الخطابة، إذ كان كل فريق ينتصر لنفسه ويحاول أن يثبت أن الحق معه، وفي خضم هذه الأحداث والوقائع ودور الخطابة فيها، وصلنا أن الخطابة ليست بالفن السهل أو المتيسر، إلا لمن يملك زمام اللغة، واجتمع في لسانه الفصاحة والبيان و القدرة على القول والجرأة عند المقابلة مع ضرورة الإلمام بأمور عديدة كالثقافة الواسعة والدراية التامة بنفسية المستمعين، إلى غيره من الأمور.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

2-أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي: البداية و النهاية ج7، دار الكتب العلمية، لبنان، 1994 .

3- أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة : عيون الأخبار، ج1، دار الكتب العلمية،ط3 لبنان،2011 .

4- أبو عمرو أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد، ج4، دار الكتب العلمية، لبنان .1994

5- أبو عمرو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين ج1 ،2 ، دار المعارف مصر،دت.

6- أحمد محمد الحوفي : فن الخطابة، دار نهضة مصر للطبع والنشر،ط5، مصر،.2005

7- إحسان النص: الخطابة في عصرها الذهبي، مطابع دار المعارف مصر، دت.

8- إليا حاوي: فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، لبنان،دت.

9- البخاري محمد إسماعيل: صحيح البخاري، ج5،دار الفكر للنشر و التوزيع ط2، الأردن .1990

10-الخطيب جلال الدين القزويني: الإيضاح والمختصر،صبيح الجمالية الحديثة ط2، مصر دت.

11- الطبري محمد بن جرير:تاريخ الأمم والملوك، ج3، دار المعارف، ط 1 مصر1979.

12- الكند هولي: حياة الصحابة، دار الفكر العربي، ط1، مصر .2005

13-الهادي كاشف الغطاء: مستدرك نهج البلاغة، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ط3،لبنان .1996

14- حسين الحاج حسن: أدب العرب في صدر الإسلام،ج1، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط.1992،1

15-محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها، تاريخها في أزهى عصورها، دار الفكر العربي ط 2 مصر،دت.

16- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج4، دار صادر/ ط4/ لبنان/ .2005

17-محمد طاهر درويش: الخطابة في صدر الإسلام، ج1،دار المعارف، د ط،دت.

18- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، دار المعارف، ط2، مصر 1999.